الباب الخامس

منهاج علمي لتنمية موهبة الاختيار الحر حفاظا على المسئولية من أى مؤثر يعوق حركتها

الفصل الأول : النية .

الفصل الثانى : استقلال الشخصية .

الفصل الثالث : استدامة الاستعانة بالله .

الفصل الأول
النية

نبدأ « بالنية » فى أول فقرة من هذا المنهاج لتنمية موهبة الاختيار الحر ابتغاء رضوان الله أولا ، فاعتبارات صحيحة تلك التى حرص من أجلها كثير من علماء الإسلام على تقديم النية فى تأليفهم ، فإنه لمن أهم الواجبات أن يتحرك الانتباه عند الدارسين والقارئين إلى تجريد القصد لله سبحانه حتى يكون تحصيل العلم أقوى أثرا وأكثر ثوابا وبركة ونفعا .

فقد روى الإمام أحمد عن أبى سعيد ابن أبى فضالة الأنصارى أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك** » [(١)] .

بيد أن إيرادنا للنية هنا ، ـ فى أول فقرة من المنهاج الذى ينمى موهبة الاختيار الحر ـ يراعى إلى جوار هذا الاعتبار اعتبارًا آخر له صلته الوثيقة بحرية المسلم التى هى المحور الأساس فى صلاحيته لتحمل المسئولية ، من حيث إن النية قوة باطنية تأبى الخضوع لأى قيد ينال من هذه الحرية فى أعماق المسلم .

وشرح ذلك فى بساطة :

أنه لا يسيطر على باطن الإنسان أحد سوى الله ، والنية من هذا الباطن ، ولا سلطان لأحد من الناس عليها أبدا ، بل هى آخر معقل يلجأ إليه المسلم إذا غلب على أمره كى ينجو من عقاب الله سبحانه .

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « **من رأى منكم منكرا فليغيره**

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة .

بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[١] .

فالحديث الشريف يقرر فى وضوح أن المسلم إذا تعرض لمثل هذه المواقف الصعبة التى تسقط فيها أسلحة الإصلاح باليد واللسان فعليه حينئذ أن يلجأ إلى سلاح النية ، وهو سلاح مُؤَمَّنٌ بالفطرة غير قابل لأن يفل أو يقهر من الخارج أبدا .

ومعنى ذلك أن الإرادة الصالحة التى تحرص على مسئوليتها أمام الله ، عليها أن تتشبث بالنية كحل نهائى لضمان حرية الرأى أو الاعتقاد داخل حصنه السرى المنيع دون أن تنهار الشخصية الحقيقية للإنسان التى هى مبادئه المقدسة ومعتقداته الأصيلة ، وهو بهذا السلوك النفسى أو الباطنى يظل مستمسكا بأمرين :

بحبل الله المتين أولا ، وهو فى نفس الوقت قد حافظ على حقيقة حريته فى الاعتقاد الذى يرتضيه .

وقد تظاهر القرآن مع السنة وآزرها بوضوح فى تقرير هذه الحقيقة .

قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦] .

قال الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية : استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله .

وقد روى العوفى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر ، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فأنزل الله هذه الآية .

وهكذا قال الشعبى ، وقتادة وأبو مالك .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور قال : عن معمر

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه وأخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة عن أبى سعيد .

قال عن عبد الكريم الجزرى قال عن أبى عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم فى بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبى ﷺ : فقال النبى ﷺ : « **كيف تجد قلبك ؟** » قال : مطمئنًا بالإيمان . قال النبى ﷺ : « **إن عادوا فعد** » .

ورواه البيهقى بأبسط من ذلك ، وفيه أنه سب النبى ﷺ ، وذكر آلهتهم بخير ، فشكا ذلك إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما تركت حتى سببتك ، وذكرت آلهتهم بخير .

قال : « **كيف تجد قلبك** » .

قال : مطمئنا بالإيمان .

قال : « **إن عادوا فعد** » .

وفى ذلك أنزل الله : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦] .

وهكذا لم يعصم عمار بن ياسر من هذه الفتنة المهلكة سوى نيته التى استطاع بها أن يحافظ على أمور ثلاثة كلها ذات قيمة جوهرية ، وإن تفاوتت فيما بينها القيم :

أول ما استطاع عمار أن يحافظ عليه بنيته ، هو رضوان الله سبحانه .

وثانيها : حقيقة إيمانه واعتقاده ، وحرية رأيه .

وثالث هذه الأمور التى استطاع أن يحققها عمار بنيته حين أخفى بها عقيدته هو النجاة من العذاب فى بدنه ونفسه حيث استبقاهما بمشيئة الله وإذنه لخدمة الإسلام على عهد الرسول ﷺ وخلفائه الأربعة الراشدين من بعده ﷺ أجمعين .

فالقرآن والسنة كلاهما يتفقان على أن النية الصالحة يستطيع العبد بإحسان استعمالها أن يحمى عقيدته ويحرسها من العدوان ، وبهذا تعتبر النية ركنا عظيما له أهميته الكبرى فى حماية حرية العقيدة عند أشد المخاطر وأحرج الشدائد ، وهذا أكبر

كسب فى حياة أصحاب العقائد من المؤمنين ، وإلا فإن الخسارة تكون فادحة لو انهار المرء فى أعماقه ومن داخله ؛ لأنه حينئذ يكون قد فقد حريته نهائيا فى اعتناق ما يريد ، ولا يوجد فى الحياة إصر أو قيد أشد وأقسى من هزيمة العقيدة ، بيد أن النية الخفية قادرة بفضل الله على منع هذا السوء ، إذا ما حرص المسلم على استحضارها وتجديدها واستصحابها حتى يستديم استعلاءه على العوالم الخارجية المناوئة للإيمان والحق دون هوادة أو توقف ، مما حدى بالقرآن الكريم أن ينبه إلى اطراد هذا الصراع .

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١ ـ ٢] .

كما جاء فى الحديث الصحيح : « **أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ،ثم الأمثل ، فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد له فى البلاء** »[1] .

ولكن مهما بلغ عسف البلاء وظلمه فهو غير قادر على اقتحام حصن النية ومخبئها الأمين كى تظل عقيدتنا وصلتنا بالله ومحبتنا لرسولنا ﷺ وأهل الخير والحق ، وبغضنا للشر والباطل والسوء ونفورنا منه ، تظل هذه المعتقدات كلها مقدسات حرة بعيدة عن المنال والهوان .

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

[آل عمران : ١٣٩ ـ ١٤١]

فوائد أخرى للنية :

على أن هناك نقاطًا أخرى ينبغى أن نشير إليها ونلحقها بما سبق فى تقرير أن النية

---

(١) تفسير ابن كثير : أول العنكبوت ، وهو فى الصحيح كما ذكر .

واحدة من أركان الحرية الهامة .

أ ـ أول هذه النقاط هى عملية التدريب المستمرة بهذه النية التى تسبق أعمالنا وأقوالنا جميعا ، فالنية متجددة مادامت حياة المسلم مستمرة بين يدى كل عبادة ، من طهارة أو صلاة ، أو صدقة ، أو صلة لرحم ، أو بر لوالدين ، أو رعاية لجار ، أو وفاء لصديق ، أو زيارة لمريض ، أو سعى على معاش ، أو رحلة حج ، أو تربية لولد ، أو إحسان لزوج ، أو إصلاح لذات البين ، أو رد لغيبة ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو رفع للأذى من طريق ، أو صوم مفروض ، أو مسنون ، أو إعانة لمحتاج ، أو إغاثة لملهوف ، أو قرض حسن لغارم ، أو تشييع لميت ، أو تشميت لعاطس ، أو التزام بسنة فى طعام ، أو شراب ، أو ملبس ، أو خروج ، أو دخول ، إلى غير ذلك من الأعمال الكثيرة التى تجعل التدريب العملى مستمرا ودائما حتى يتطور إلى طبع أصيل فى احترام حرية النفس والغير ومعرفة حدودها فى إطار من الحب والتعاون والتقدير .

ب ـ ومن إعجاز الله سبحانه فى سر صنعته لهذا الإنسان أن هذه النية إذا التزم فيها المسلم بتعاليم الله وتوجيهات نبيه محمد رسول الله ﷺ فإنها تنشط تفكيره وعقله بصفة مستمرة إلى جوار تنشيط بصيرته الذى سبقت الإشارة إليه .

وهى تنشط العقل لأنها تلزم المسلم أن يكرر توجه الذهن بصورة دائمة إلى أهداف أعماله ، وتكون هذه العملية الفكرية المتكررة بمثابة تدريب لإعمال العقل والوعى بصورة تلقائية فى العمل سببا ونتيجة ، فتصبح عقلية المسلم عقلية علمية فى أخذه للحياة ، وليس بخاف ما بين العقل والحرية فى الاختيار من الوشائج الأصلية ، والصلات الوثيقة .

جـ ـ وإذا أصبحت عقلية المسلم بهذه المثابة بعد استدامة المسيرة على هذا الهدى الإسلامى ، فإن المسلم حينئذ ينفر كل النفور من التصرفات المرتجلة والسلوك الخالى

من الوعى ، أى الخالى من المسئولية ، أو الخالى من النية .

وإذا خلت تصرفات الأفراد من الارتجال واللامبالاة فكيف تصبح آراؤهم وأفكارهم ؟ .

إن التحرر من قيود الارتجال فى حد ذاته عمل عظيم من أعمال الحرية التى تفضى بالأفراد إلى صنع القرار الحر المرتبط بآثاره النافعة والمفيدة . وهذا وحده أخطر عنصر من عناصر ومقومات التنمية المعنوية والمادية .

د ـ كان الحديث السالف كله عن نية الأفراد ، فماذا يحدث لو لم يقتصر أداء دور النية على أفراد محدودين ، بل تجاوزهم وتعداهم إلى مجتمع بأسره ، أو إلى أعداد كبيرة منه بتعبير أكثر واقعية ماذا يحدث آنئذ ؟

وكيف تكون حرية الناس جميعا فى مجتمع مؤمن ، يغلب على أفراده الإحساس بالمسئولية عن أقوالهم وأعمالهم ، أى كيف تكون حرية الناس فى المجتمع الإسلامى ؟ وكيف تصبح مكانة الأمة الإسلامية ومنزلتها ؟

إن من أعظم الثمرات الجامعة فى التزام هدى الإسلام باستحضار النية الصالحة أنها ـ أى النية ـ حين تصبح شعار الأغلبية فى بداية أعمالهم وأقوالهم فإنها ستعطينا فورا وبلا إبطاء تفكيرا متجانسا فى مناشط الحياة بكل اتجاهاتها وتصبح إدارة دفة هذه الأمور بين أطراف المجتمع شبابا وشيوخا ، ورجالا ونساء ، وحكومةً وشعبًا ، وأغنياء وفقراء أمرا مقبولا وميسورا ، فطبيعة النوايا الصالحة أن تتجانس وتتوحَّد لتجمع بين ذويها مهما كانت مشاربهم وطبقاتهم ونوعياتهم ، وتلك بعض وظائف النية التى توفر بين هؤلاء جميعًا روح المساواة والإخاء والحرية .

إن منهاج السنة فى مسألة النية وحدها له أعظم الثمرات على الأفراد مباشرة فى حرياتهم وبصائرهم وعقولهم وسلوكهم ، وعلى الأمة فى تجميع وسائلها ومناهجها

وتجانس جماعاتها حتى يتحقق التعاون بين الناس جميعا فى هذه الأمة ، التى قال الله عنها :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠] .

أى إذا التزمت بالطريق المرسوم بها ، والمنهاج الذى شرع لها .

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨] .

الأحاديث النبوية الشريفة :

١ - فى شمول النية لجميع قطاعات المناشط والأعمال يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام البخارى ﷺ وغيره من المتحدثين : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه** » (١) .

٢ - وفى احتفاظ المسلم بثباته على الحق عن طريق القلب والنية فى حالة عدم قدرته على تغيير المنكر بيده أو لسانه يقول رسول الله ﷺ : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** » (٢) .

٣ - وفى مطالبة المسلم بتجريد نيته لابتغاء مرضاة الله سبحانه وتحريرها من الشوائب ورد حديث الرسول ﷺ الذى أخرجه البخارى بسنده إلى أبى موسى قال ﷺ : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله : ما القتال فى سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية ؟ فرفع النبى رأسه ـ قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً فقال : « **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** ﷻ » (٣) .

---

(١) البخارى .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده والإمام مسلم فى صحيحه كما أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى سعيد .

(٣) متفق عليه .

وعن أبى هريرة ﷺ أن رجلاً قال : يارسول الله ، رجل يريد الجهاد وهو يريد عرضاً من الدنيا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا أجر له » ، فأعظم ذلك الناس ، وقالوا للرجل : عد لرسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه ، فقال الرجل : يارسول الله رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرض الدنيا ؟ قال : « لا أجر له » ، فأعظم ذلك الناس وقالوا له عد لرسول الله ﷺ ، فقال له الثالثة : « لا أجر له » (١) .

وعند أبى داود والنسائى عن أبى أمامه ﷺ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت إلى رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا شئ له » ، فأعادها ثلاث مرات يقول رسول الله ﷺ : « لا شيء له » ، ثم قال : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ماكان خالصا وابتغى به وجهه » (٢) .

وأخرج الترمذى عن الوليد بن أبى الوليد أبى عثمان المدائنى أن عقبه بن مسلم حدثه أن شفيا الأصبحى حدثه : أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة ﷺ . قال : فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس ، فلما سكت وخلا قلت له : أسألك بحق وبحق لما حدثتنى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته .

فقال أبو هريرة : أفعل : لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكثنا قليلاً ثم أفاق فقال : لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ فى هذا البيت ما معنا أحد غيرى غيره « إلى أن قال » حدثنى رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضى بينهم وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل قتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول

---

(١) أخرجه أبو داود ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم باختصار وصححه (حياة الصحابة ج ١ ص ٥٠٨) .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٤٢١ والمرجع السابق أيضاً نفس الصفحة .

الله للقارئ .

ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى ؟

قال : بلى يارب .

قال : فماذا عملت فيما علمت ؟

قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار .

فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة له : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له :

ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟

قال : بلى يارب .

قال : فما عملت فيما آتيتك ؟

قال : كنت أصل الرحم وأتصدق .

فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة كذبت ، ويقول الله :

بل أردت أن يقال : فلان جواد وقد قيل ذلك .

ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله له :

فيما ذا قتلت ؟

فيقول : أمرت بالجهاد فى سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت .

فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة كذبت ، ويقول الله :

بل أردت أن يقال : فلان جرئ وقد قيل ذلك » .

ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى فقال يا أبا هريرة :

« **أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة** »[١] .

قال الوليد أبو عثمان المدائنى : فأخبرنى عقبة أن شفيا هو الذى دخل على معاوية رضي الله عنه فأخبره بهذا .

وحدثنى العلاء بن أبى حكيم أنه كان سيَّافًا لمعاوية : فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبى هريرة فقال معاوية :

قد فعل بهؤلاء هذا ، فكيف بمن بقى من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك وقلنا : قد جاءنا الرجل بشر ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال :

صدق الله ورسوله ﷺ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٢] [هود:١٦] .

٤ـ وقد بلغ من حرص الإسلام على صيانة التجرد فى النية واهتمامه بثبات هذا الخلق فى واقع حياة المسلم مبلغا جعل السنة المطهرة ترسم لنا سياسة عملية فى العادات والعبادات تفضى إلى حراسة النية من ضعف التردد وتحميها من عدم التجرد ، ويتجلى ذلك فى الأحاديث الشريفة الآتية :

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تقدموا شهر رمضان بصيام قبله**

---

(١) أخرجه مسلم فى الجهاد والإمارة ، وأخرجه الترمذى ج ٢ ص ٦١ .

(٢) قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب وقال المنذرى (فى الترغيب ج ١ ص ٣٨) : ورواه ابن خزيمة فى صحيحه نحو هذا لم يختلف إلا فى حرف أو حرفين ، وابن حبان فى صحيحه بلفظ الترمذى (كتاب حياة الصحابة ج ٣ ص ١٩٢ ـ ١٩٤) .

بيوم أو يومين ، الا أن يكون رجل كان يصوم صوما فليصمه »[١] والصوم المنهى عنه قبل رمضان هو الصوم للاحتياط والتخوف من كون يوم الشك من شهر رمضان وهذا يجعل نية الصائم غير واضحة فهى مترددة بين كون هذا اليوم الذى صيم احتياطا من شهر شعبان أم من شهر رمضان .

وهذا الوضع يفتح بابا من أبواب الضعف على وضوح الرؤية وضوحا كاملا أمام النية للأمر المراد تقديمه لله سبحانه ، وهذا اللون من الذبذبة لا يستريح إليه الإسلام بحال ، بل يغلق الباب عليه فينهى عن صيام هذا اليوم مؤثراً أن يفطر المسلم فيه على أن يصومه بنية مترددة مذبذبة .

ونهاية الحديث واضحة فى أن المسلم الذى يصوم هذا اليوم لسبب معتبر آخر فلا مانع من صيامه ؛ لأن الصائم حينئذ سيكون على نية واحدة غير مترددة حيث إنه صائم باعتبار التطوع فقط ، أو بسبب واضح محدد .

ومن أبلغ الدلالات على موقف السنة الحاسم بهذا الشأن أن الاحتمال يكون اليوم الذى أوصت بإفطاره من رمضان وارداً وروداً شديداً ، ووضعت لهذا الاحتمال علاجا لابد من تطبيقه على كل مفطر لهذا اليوم .

وفق توجيه الشرع وعلى كل صائم إذا كان صيامه مشروعا كالمستثنى فى آخر الحديث ، أو صياما غير مشروع كالذى يصومه للاحتياط لرمضان .

كل هؤلاء ينطبق عليهم علاج واحد ألا وهو قضاء يوم بدلا عن هذا اليوم الذى أفطره المسلمون أو صاموه ، حين يتبين أنه كان من رمضان .

ومعنى ذلك أن الذى صام يوم الشك فعلا لا يجزى عنه هذا الصيام بسبب تردد نيته وعدم تجريدها من الاعتبارات الأخرى المصاحبة .

---

(١) رواه الجماعه ، وقال الترمذى حديث حسن صحيح _ تحفة الأحوذى ج ٣ ص ٣٦٥ .

وبالاختصار فإن الشارع فضل إفطار يوم الشك حتى لو ظهر فيما بعد أنه من رمضان على صيام لا تتضح النية فيه .

ومن هنا كان يستاء الصحابة استياء شديداً من الذى يجهل هذا الحكم فيصوم يوم الشك ويصفونه بالمعصية ، فقد روى الترمذى عن صلة ابن زفر قال : « كنا عند عمار بن ياسر فأتى بشاة مصلية فقال : كلوا ، فتنحى بعض القوم فقال :إنى صائم : فقال عمار بن ياسر : « من صام اليوم الذى شك فيه فقد عصى أبا القاسم » [(١)] .

ولعل أبلغ فى الدلالة مما ذكرنا على حرص الشارع الحكيم والسنة المطهرة على تجريد النية وتفريغها للعبادة المقصودة ما طلبه الشارع من المسلم من سياسة عملية تستبعد كل الاهتمامات الأخرى بإشباع حاجة النفس منها قبل الشروع فى العبادة .

عن ابن عمر قال : قال النبى ﷺ : « **إذا كان أحدكم على الطعام فلا يعجل حتى يقضى حاجته منه وإن أقيمت الصلاة** » [(٢)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا صلاة بحضرة طعام ، ولا هو يدافع الأخبثين** » [(٣)] .

وواضح من هذا الحديث سبب النهى عن الجمع بين الصلاة وغيرها ، حيث يتعلق الاهتمام بشئ مصاحب للصلاة فلا تصفو لها نية المصلى لانشغالها بغير الصلاة .

وهناك حديث يصرح بالسبب تصريحا كاملا رواه البخارى عن أبى الدرداء قال :

---

(١) قال الترمذى : « حديث صحيح » وأخرجه أيضا ابن حبان وابن خزيمة وصححاه ، والحاكم والدارقطنى والبيهقى فى المعرفة : اسناده صحيح وتكلم فيه الصاغانى فرد عليه العراقى ردا شافيا (ص ٣٦٥ ـ ٣٦٧ ج ٣ الأحوذى) .

(٢) رواه البخارى نيل الأوطار ج ٣ ص ١٧٧ .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

« من فقه الرجل إقباله على حاجته ، حتى يقبل على صلاته وقلبه فارغ »[١] .

وعن أنس ﷺ أن النبى ﷺ قال : « **إذا قدم العشاء فابدءوا قبل صلاة المغرب لا تعجلوا عن عشائكم** »[٢] .

وعن عائشة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **إذ أقيمت الصلاة وحضر العشاء فأبدءوا بالعشاء** »[٣] .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء ولا تعجل حتى تفرغ منه** »[٤] .

إن هذه الأحاديث مجرد أمثلة تمثل اتجاها أصيلا ومستمرا فى محاربة تردد النية . ففى النهى عن الوسوسة أثناء الوضوء والاغتسال توجيهات للسنة كثيرة .

وفى النهى عن الوسوسة والشك فى الطهارة أيضا أحاديث كثيرة بعضها يطالب فى سبيل محاربة الشك والتردد بعدم الوضوء إلا من سماع صوت الناقض أو وجود رائحته .

ومثل ذلك البناء على العدد الأقل فى الصلاة عند الشك مع طرح الشك كلية وإبعاده . وأيضاً وجوب إتمام العمل بعد توجه النية وابتدائه .

فكل ما ذكرناه وغيره من منهج عملى لحراسة النية من دواعى ضعفها أو شغلها بما لا يجعلها متجردة فى وسيلتها وغايتها إلى الله سبحانه ، فهى متحررة من كل شئ إلا من التوجه إلى الله سبحانه بعبادة مخصوصة ، وهى تشكل بهذا الاعتبار أساسا فى

---

(١) رواه البخارى .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

قوة المشيئة ، ومضاء الاختيار .

وصدق الله العظيم : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب:٤] .

٥ـ وفى النية باطن خفى وسر مغيب لا يقع تحت سيطرة بشر مهما كان هذا البشر ، وأن الله وحده هو الذى يعلم سر النية ويترك أمرها إليه سبحانه ، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا ، وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله** » [(١)] .

ونرى فى هذا الحديث الشريف قاعدة إسلامية واضحة تحرص السنة النبوية الطاهرة على تقريرها .

تلك القاعدة أن الحكم على الناس بالظاهر والله يتولى السرائر .

٦ـ وإذا كانت السرائر صالحة والنوايا طيبة فإن السنة تؤكد حصول المرء على ثواب نيته ، ولو عاقته العوائق عن تنفيذ ما انتواه ، وفى هذا المعنى نختار الأحاديث الآتية : قال الإمام البخارى ﷺ : حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا حماد هو ابن زيد عن حميد عن أنس ﷺ أن النبى ﷺ كان فى غزاة فقال : « **إن أقواماً بالمدينة خلفنا ، ما سلكنا شعباً ولا واديا إلا وهم معنا فيه ، حبسهم العذر** » [(٢)] .

وعن حنيف عن النبى ﷺ أنه قال : « **من سأل الله الشهادة من قلبه صادقاً ، بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه** » [(٣)] .

وعن أبى كبشة الأنصارى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **ثلاث أقسم عليهن :**

---

(١) رواه البخارى ج ١ ص ٧٣ طبعة مكتبة النهضة بمكة .

(٢) رواه البخارى ج ٤ ص ٢٢ طبعة مكتبة النهضة بمكة .

(٣) أخرجه الترمذى واللفظ له وقال : حسن غريب وأخرجه مسلم و أبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم (ص ٢٩٤ ج ٥ تحفة الأحوذى) .

ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها ، أحدثكم حديثاً فاحفظوه : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا [١] وعلما فهو يتقى ربه فيه ، ويصل به رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل .

وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان بنيته ، فأجرهما سواء .

وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما يخبط فى ماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً فهو بأخبث المنازل .

وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء » [٢] .

وروى أبو داود قال : حدثنا القعنبى عن مالك عن محمد بن المنكدر عن سعيد بن جبير عن رجل عنده أن عائشة زوج النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « ما من امرئ تكون له صلاة بليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة » [٣] .

وأخرجه الحاكم بصيغة : « ما من امرئ يقوم الليل فغلبته عينه حتى يصبح ، كتب له مانوى وكان نومه عليه صدقة من ربه » [٤] .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « ما

---

(١) تظهر أهمية المال وأهمية تصرفات المسلم المالية كمقياس وميزان دقيق فى مجال المسئولية .

(٢) أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح وأخرجه أحمد وابن ماجه (ص ٦١٥ – ٦١٧ تحفة الأحوذى) .

(٣) أخرجه مالك فى الموطأ ، والنسائى والبيهقى واللفظ لأبى داود .

(٤) كتاب المهل العزب المورود ، شرح أبى داود ج ٧ ص ٢٣٩ .

أحد من الناس يصاب ببلاء فى جسده إلا أمر الله ﷻ الملائكة الذين يحفظونه فقال : اكتبوا لعبدى كل يوم وليلة ما كان يعمل من خير ما كان فى وثاقى »[١] .

وعن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « قال رجل لأتصدق بصدقه فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق!!!

قال : اللهم لك الحمد على سارق ، لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية!!!

فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، فقال لأتصدقن ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون : تصدق على غنى !!!

فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى سارق وعلى غنى .

فأتى فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، أما الزانية فلعلها تستعف به عن زناها ، ولعل السارق يستعف به عن سرقته ، ولعل الغنى أن يعتبر فينفق مما آتاه الله ﷻ »[٢] .

وعن أنس : « أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برأت منها إلى الله ورسوله ؟ قال : « نعم ، إذا أديت إلى رسولى فقد برئت منها إلى الله ورسوله ، فلك أجرها ، وإثمها على من بدَّلها »[٣] .

وعن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال : « كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعون نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعون نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة . ثم سأل عن أعلم

---

(١) أورده المنذرى وقال رواه أحمد واللفظ له ، والحاكم وقال على شرطهما أ .هـ ، للفتح الربانى لترتيب المسند للشيخ الساعاتى الجزء الخامس (ص ١٤٤ ، ١٤٥) .

(٢) متفق عليه : وفى رواية الطبرانى : « فساءه ذلك فأتى فى منامه » ، وكذلك أخرجه أبو نعيم والاسماعيلى (ص ١٧٣ ج ٤ نيل الأوطار للشوكانى مكتبة الحلبى) .

(٣) رواه أحمد المصدر نفسه ج ٤ ص ١٧٤ .

أهل الأرض ، فدل على رجل علم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، من يحول بينك وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فأعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سواء .

فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلا فقبله الله . وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيهما كان أدنى إلى الأرض فهو له . فقاموا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة »[1] .

٧ـ وللنية عمل هام آخر لا يقل أهمية إن لم يزد عن منح المسلم ثواب الأعمال التى تمنعه الأعذار المعتبرة من أدائها وهو ما سبق بيانه فى الفقرة السالفة مباشرة .

أما الأمر الهام الذى تصنعه النية فى المسلم الحريص على صلاح نيته ، فذلك هو تحويل الأعمال التى يظنها الناس أعمالا دنيوية أو ترفيهية بحتة إلى أعمال تعبدية يثاب عليها صالحوا النية ثواباً عظيماً بالإضافة إلى المتعة التى حصلوا عليها من أعمالهم ،حيث تتحول الحياة كلها مع هذه النية الصالحة إلى محراب فسيح واسع يعبد الله فى جميع أرجائه بكل منشط من مناشط الإنسان حتى ما تعلق منها بتناول الإنسان لذائذ الأطعمة والمأكولات والأشربة ، أو ما يتعلق بمناشطه الرياضية فى حديقة أو حقل أو ملعب ، أو ما تعلق بحاجات الجسم الأخرى من نوم أو جنس أو تجمل أو ملبس . كل ذلك وغيره كثير يتحول بالنية إلى أعمال مرضية لله ينال عليها المسلم أجر العابدين .

وحين يتدرب المسلم على هذه الحياة الجميلة ويتعودها ، فإنه لا محالة يستشعر اطمئنانا لمعية الله سبحانه ، وإذا كان الله معه بالنعمة والرعاية فى كل شئ فما الذى

---

(١) متفق عليه المصدر نفسه ج ٧ ص ٥٧

يخافه ويخشاه ؟ ومن إجابة هذا السؤال ينبثق معين من حرية الوجدان والباطن لا تلبث أن تترك انطباعها الواضح فى سلوكه الآمن المطمئن لخير نفسه والناس من حوله ، وشعوره بالرضا واليقين ، فيختار ما يختاره له الله . ويصبح من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وهذه بعض الأحاديث النبوية الشريفة الصريحة الدلالة على هذا الاتجاه :

« إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها ، حتى ما تجعل فى (فى) امرأتك » [(١)] .

وروى البخارى أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : **« إذا أنفق الرجل على أهله (يحتسبها) فهو له صدقة »** [(٢)] .

ولنتأمل الصورة التى رسمها الحديث النبوى الأول عن زوج يداعب امرأته فيضع فى فمها طعاما فإنه يؤجر ويثاب . ولكن لابد من تأمل العبارتين الواردتين فى الحديثين الأول والثانى الخاصتين بالنية كشرط للفوز بهذا الثواب .

فعبارة : **« تبتغى بها وجه الله »** ، فى الحديث الأول ، وكلمة : **« يحتسبها »** ، فى الحديث الثانى تقطعان بأن هذا الثواب بسبب النية الصالحة .

وصور النية الصالحة التى يمكن أن تجتمع مع المتعة ويثاب عليها المسلم كثيرة جدًّا ، وهذه الأحاديث مجرد أمثلة لها ؛ لكنها جميعا على أى حال تصقل المشيئة فى اتجاه الحكمة ، وتسدد الاختيار إلى الصراط المستقيم ، وتضع المسئولية فى مكانها الأمين ، وتحمى بقوة تنمية القيم روحيا وماديا فى كل اتجاه .

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخارى ج ١ ص ١٧ طبعة مكتبة النهضة بمكة ، و« فى امرأتك » ، أى : فمك امرأتك .

(٢) البخارى ج ١ ص ١٧ طبعة مكتبة النهضة بمكة .

الفصل الثانى
استقلال الشخصية

فى المنهاج العملى لتنمية المسئولية وحرية الاختيار والمشيئة فى الإنسان جاء القرآن الكريم بالقواعد العملية التى تحقق هذه الأغراض . فهو أولا يطلب من الناس أن يكون إيمانهم شخصياً ومستقلا عن التأثر بالوراثة الضارة أو البيئة السيئة ممثلتين فى الآباء والأجداد وأعراف المجتمع وتقاليده .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:١٠٤] .

ومع ملاحظة وصايا القرآن بالوالدين فى مواطن كثيرة إلا أنه حرصاً على استقلال الشخصية فى العقيدة والإيمان حذر من متابعتهم على باطلهم ووصفهم بأنهم لا يعلمون ولا يهتدون ليحطم هيبة الباطل والضلال فيهم من نفوس أبنائهم كى يتحرروا من هذه التبعية لهم إذا كانوا على غير حق .

ونظرة فى وصايا لقمان ، التى سجلها القرآن ، تكشف لنا كيف جمع القرآن بين حقوق الآباء واستقلال شخصية الأبناء :

قال تعالى : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:١٥] .

والرسول نفسه ﷺ ـ وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وآبائهم ـ أمره ربه أن يقول للناس بنص القرآن : ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام:١٠٤] .

ويطلب القرآن الكريم من المؤمنين به أن يكونوا مستقلين متميزين عن الكافرين والمجرمين بنصوص صريحة واضحة :

قال تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

[الكافرون:١ـ٦]

وانظر ما فى التكرار من إصرار على التميز والاستقلال ، ومعروف أن خطاب النبى ﷺ خطاب لأمته .

وقال تعالى : ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٢٥] .

ويطرد هذا الأسلوب ـ ليس فقط فى الفئات الكافرة والعناصر الضالة ـ وإنما لو دعت الضرورة إلى التميز والاستقلال عن المجتمع كله فى حالة انحرافه وفساده ، فإن المؤمن لا يتردد والحالة هذه من مواجهة المجتمع كله بالاستقلال عنه ، حتى يمنع الإسلام أبناءه جميعاً ، فرداً فرداً وأسرة أسرة ، من التفريط فى استقلال شخصيتهم ، ويحذرهم من التبعية للغير أو ممالأته فى الخطأ والشر والإثم .

فاستقلال الشخصية طريق ضرورى لتحرر المسلم من التبعية للبيئة المنحرفة مهما كان تيارها جارفاً ، وسنختار نصًا من السنة يعالج تفسير آية كريمة تشدد فى حماية النفس من مضرة الضلال عند الغير .

ومع صراحة النص القرآنى فى دلالته على هذا الاتجاه فقد تأوله بعض الناس على غير وجهه ، لكن السنة بينت الوجه الصحيح لتفسير الآية .

خطب المسلمين أبو بكر ﷺ فقال : أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة:١٠٥] ، وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الناس إذا**

رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل يعمهم بعقابه »[١] .

ويلاحظ هنا أن الصديق ﷺ فى استشهاده بهذا الحديث النبوى الشريف لم يكتف بعدم متابعة المسلم للخطأ العام ، وإنما يرى مواجهة الخطأ والتصدى له ، وهى درجة تفوق مجرد التحرر من التبعية وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم .

لكن الحديث الآتى الذى يرويه الترمذى وغيره يعطى شيئاً من التفصيل عن دلالة الآية الكريمة على مجرد التحرر من التبعية والحفاظ على استقلال الشخصية ، فقد قال الترمذى :عن أبى أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشى فقلت له : كيف تصنع فى هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت : قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ .

قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « **بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع العوام ، فإن من ورائكم أياماً ، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم** » .

وفى رواية قيل : يارسول الله : أجر خمسين رجلا منا أو منهم ؟ قال : « بل خمسين منكم »[٢] .

فمواقف المسلم ثلاثة كلها تتسم بحرية الشخصية واستقلالها : موقف تسمح حالة المجتمع بتغيير المنكر وهو عزيمة واجبة الأداء ، وموقف لا تسمح حالة المجتمع بالتغيير ، والرخصة هنا لا تتجاوز بحال درجة الاستقلال عن المجتمع ،

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن ماجه .

(٢) الترمذى وأبو داود وابن ماجه .

وموقف لا تسمح فيه حالة المجتمع بالتغيير ، لكن المسلم لا يترخص بالاستقلال فحسب إنما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا شك أنها أعلى المراتب وأكثرها مثوبة وأجراً لما فيها من بلاء أشد ، وصبر على أذى الخلق ، ويترتب على الاستقلال فى اختيار المنهاج ، الاستقلال فى تحمل التبعة .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾

[سبأ:٣١ ـ ٣٢]

وقال تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

[فصلت: ٤٦]

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس:٣٤ ـ ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

[الإسراء:١٣ـ١٥]

وقال تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا

فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم:٢١].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة:١٦٦].

الأسباب: جمع سبب وهو فى الأصل الحبل والمراد به هنا الوشائج من القرابات والمودات.

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨ ـ ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

موقف السنة المطهرة:

من أهم الأسباب التى عنيت بها السنة المطهرة لتأكيد حرية المسلم فى اتخاذ قراراته تحرره من التبعية تحريراً كاملاً، وإبعاد المؤثرات الخارجية التقليدية جميعها عن جواهر آرائه ومعتقداته سواء كانت هذه المؤثرات تاريخية أو عرفية أو اقتصادية أو اجتماعية أو عائلية.

ومن هنا كانت القواعد الأساس فى كيفية تحمل المسلم لمسئولية الشريعة أن تكون مسئولية مباشرة وشخصية حتى لا يرتبط المسلم بمعوق ما يعوقه عن الموقف الذى يمليه الحق ويقتضيه الواجب.

والذى نريد أن نخلص إليه دون استطراد لا تدعو الحاجة إليه هو القول بأن « استقلال الشخصية فى تحمل المسئولية » أمر يسهم فى دعم الحرية التى تعتبر بحق ركنا هاما من أركان المسئولية عن تنمية النفس والغير ذاتيًا واجتماعيًا . وقد جاءت الأحاديث النبوية فى هذا المعنى واضحة وضوح الشمس تساندها وتؤيدها طائفة كبيرة من الآيات القرآنية ذات الدلالة الصريحة المحددة .

فقد روى الإمام البخارى ﷺ قال : حدثنا قتيبة ابن سعيد قال : حدثنا ليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة ﷺ : أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقال [١] : ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟

فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله ﷺ : « **أتشفع فى حد من حدود الله ؟** » ، ثم قام فخطب ثم قال : « **إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها** » [٢] .

وفى الحديث الشريف أمران ساعدا على ستر أغواره وأعماقه البعيدة على ما فيها من يسر وسهولة .

أحد الأمرين : أن الحديث يكثر استعماله والاستشهاد به ، وكثرة الاستعمال تحدث فى الغالب نوعا من الإلف والاعتياد لا تلبث الحواس معهما أن تفقد حدة التأمل والنظر .

وثانى الأمرين : أن الحديث واضح وضوحاً شديداً ، والأمر الواضح يغرى فى الغالب بعدم التأنى فى استكناه دقائقه .

---

(١)عند أبى ذر والكشميهنى : فقالوا .

(٢) متفق عليه واللفظ للبخارى ج ٤ ص ١٤٠ طبعة مكتبة النهضة بمكة .

ولكن من الخير أن نحتفظ بصحبة الوضوح والإلف فى نظرتنا لهذا الحديث الشريف مع التخلص من هذه المساوئ التى تعلق بهما ، وحينئذ ستعطينا هذه النظرة بعض ما فى الحديث من معان تشتد حاجتنا إليها فى تصوير المسئولية الإسلامية على وجه أدق .

أولاً : كان من العرف عند العرب أن من الفضائل المؤكدة إجارة المستجير الغريب مهما كان مسرفا على نفسه وعلى مجيره من المخاطر والمهالك ويكفى أن يلجأ الغريب أو يستجير المستجير حتى تجب له الحماية دون سؤال عن وجه الحق أو الباطل .

أما حين يتعلق الأمر بالعشيرة فهنا تشتد الحمية ويتضاعف أمرها فإذا اقترب الخطر من الولد فلا تسأل عن أناة أو رشد ، فما بالك إذا كان الولد بنتا وليس بذكر !! لا نجد تصويراً لمثل هذه الحال إلا فى قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير ٨، ٩] . لقد كانوا يقتلونها وهى فى المهد مخافة التعرض مستقبلا لشئ من العار أو الذل لو قصروا فى حماية العرض .فأى جهد بذله رسول الله ﷺ فى هذه البيئة حتى قبل هؤلاء أن تقطع يد امرأة شريفة من قبيلة مخزوم فى حد من حدود الله سبحانه ؟

ذلك ما يفوتنا كثيراً تأمله وتدبره ونحن نخالط نص الحديث الشريف بوضوحه وكثرة استعماله . وذلك نفسه ما نحاول أن نقف عنده قليلاً لنكتفى من نتائجه الكثيرة بنتيجتين اثنتين لهما بالمسئولية والحرية صلة مباشرة ، ونحن فى أشد الحاجة للانتفاع بهما فيما نحن بصدده من تصميم على التغيير .

أ ـ أن هذه الإرادة المحمدية التى أرادها الله سبحانه أن تكون النموذج الإنسانى الكامل كى يتأسى بها الناس . هذه الإرادة قد حملت مسئوليتها العظيمة حرة

مستقلة . حرة من التأثر بالتقاليد المنحرفة مهما كانت راسخة ، ومستقلة عن الأعراف الخاطئة مهما كانت مسيطرة ومهيمنة ، ولهذا كان التغيير الجذرى الذى وقفنا عنده ، حتى نتعرف إلى شئ هام من خلال هذه الوقفة ، وهى أن المسئولية المستقلة فى شخص رجل سوى تستلزم حتما أن يكون هذا الرجل حرًّا من التبعية فى آرائه وسلوكه ، وإلا فلن يحدث به الأثر المطلوب والتغيير المنشود بينما هذا هو الواجب لكل مسلم .

ب ـ أما النتيجة الأخرى التى نستخلصها من وقفتنا هذه ، فهى أن سيدنا رسول الله ﷺ حين حمَّل المرأة المخزومية مسئوليتها مستقلة فمعنى ذلك أنه ﷺ قد حررها من التبعية للقبيلة العريقة فتميزت شخصية المرأة تميزا كاملا فى خطأ أو صواب وفى ضر أو نفع ، وقد كان لهذا السلوك الحازم من النبى ﷺ أحسن الأثر فى شخصية المرأة بعدئذ .

فقد روى الإمام البخارى ﷺ حديثاً من طريق عروة بن الزبير جاء فيه عن هذه المرأة فى مستقبل أمرها : فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت ، قالت عائشة : فكانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ [1] ، فهى بهذا السلوك الصحيح قد تابت وحسنت توبتها .

ثم هى أيضاً فوق ذلك على صلة وثيقة بالنبى ﷺ وآل بيته الكريم ، تحبهم ويحبونها ويقضى لها النبى ﷺ حاجاتها ، فقد أضحت من طراز حر نبيل طهرتها توبتها ، وزكاها تحملها للمسئولية المستقلة .

ثانياً : فى الحديث الشريف شخصية كريمة عزيزة من عين آل بيت النبوة ضرب بها سيدنا رسول الله ﷺ مثالا للناس كافة .

---

(١) البخارى ج ٥ ص ١٢٥ نفس طبعة مكة .

تلكم هى الزهراء الحبيبة السيدة فاطمة بنت النبى ﷺ وقد جعلها الرسول الكريم عليه صلوات الله بمنزلتها منه سبيلا تشريعيًّا لبناء عنصر المسئولية الشخصية فى أعماق كل مؤمن ، قاضياً كان أو متهماً ، فرداً أو أسرة أو مجتمعاً بأسره ، فابنة الحاكم مهما علا قدره ومهما بلغت طهارتها ونقاؤها تتحمل مسئولية سلوكها إذا اكتملت أركان الاتهام والإدانة .

بيد أن الملاحظة التى لاحظناها فى المقارنة بين حداثة العهد بالأعراف العربية ـ ذات الحمية الجاهلية ـ وبين قبول هذه البيئة أن تقطع يد واحدة من نسائها ، مثل هذه الملاحظة نفسها نجدها هنا فى الذروة ، فالمنطق الذى واجههم به سيدنا رسول الله ﷺ غريب كل الغرابة على هذه البيئة فما سمعوا عن أب يتخلى عن ابنته فى موقف كهذا ، بل يقطع يدها ، فكيف تمكَّن النبى ﷺ من جعل هذا المنطق الغريب عليهم ، منطقا مقنعا لهم ومؤثرا فيهم .

إن ذلك التحول يشير إلى نفس الجهد الخارق الذى استطاع به ﷺ أن يُبْلِغَ به فيهم إقناعا وتطبيقا هذا الشأن البعيد البالغ التباين ، ويشير بالتالى إلى المسئولية التى وصلت أرقى درجة فى الاستقلال والتحرر فى ذلك الأب الذى يصنعه النبى ﷺ فى أمته بذلك التوجيه العملى ، أبًا تحرَّر بمسئوليته من هوى عطف الأبوة على أحب بناته إليه لو لزمها شئ من حدود الله سبحانه .

ثالثاً : يقدم لنا الحديث أيضاً شخصية الحبّ ابن الحب لرسول الله ﷺ أسامة بن زيد الذى لم يستطع بحبه ودالته اختراق الجدار المحكم لهذه المسئولية الفولاذية . بل وضعته هذه المسئولية الصادقة فى موقف غاية من الحرج ، فمهما كان حبيبا هو ، فالحق والعدل والمساواة أمام المسئولية أحب إلى الله ورسوله ﷺ ، ثم إن ذكر فاطمة ﷺ فى هذا الموقف تجاوز كل مقامات الشفعاء والوسطاء إلى الحق وحده .

بهذه الموازنة الحاسمة وضعت الأمور فى نصابها على كافة المستويات من فوق

المنبر ، والنبى ﷺ يقول : « **إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها** » .

ومن قبل هذه الغضبة فى الله على مستوى الجماعة ، كان سؤاله الخاص فيما بينه وبين أسامة : « **أتشفع فى حد من حدود الله ؟** » .

وكما كان الأثر عند المخزومية إيجابيًا بعد إقامة الحد . كان الحال هنا كذلك مع أسامة ، إذ تنبه أسامة على الفور عندما أدرك أنه ما كان ينبغى له التورط فى هذه الوساطة التى تهدم ركنا من أركان المسئولية والعدالة ، فقد جاء فى رواية الإمام البخارى من طريق عروة بن الزبير السالفة الذكر ما نصه : ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه ، قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « **أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟** » .

قال أسامة : أستغفر لى يارسول الله! فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : « **أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم ... إلخ** » [١] .

ولعلنا ندرك من سياق الأحداث السريعة فى هذا اليوم أسلوب النبى ﷺ وهو يرسى ويعمق ويركز قواعد النظام الإسلامى فى خطوات متلاحقة كلها فى اتجاه غريب جدا على مجتمع القبيلة والعشيرة فى الجزيرة العربية ، ثم لا يلبث رسول الله ﷺ أن يحصل على ما يريد فى نهاية هذا اليوم المبارك :

* سيادة النظام على عرف القبيلة بما فيه من بداوة وعصبية وحمية .

* المساواة أمام القانون للقوى والضعيف وللشريف والوضيع .

* الحيلولة دون الوساطات والاستثناءات فى مجتمع تعلو فيه كلمة الحق والعدل .

---

(١) البخارى ج ٥ ص ١٢٤ نفس الطبعة .

* صيانة الحدود الشرعية وإعطاؤها حرمتها وقداستها لتحقيق دواعى الأمن والطمأنينة داخل المجتمعات الإسلامية التى تلتزم بما أمر الله به .

* ومن الضرورى أن نذكر الأثر العظيم لهذه الحادثة فى أعماق كل شخص وفرد من المسلمين والمسلمات فى المجتمع المسلم كله .

ونقصد من الأثر ـ غير ما ذكرنا من النتائج العظيمة سلفا ـ إحساس كل فرد مسلم فى أعماقه بمعنى المسئولية الحقيقية عن كسبه وسلوكه ، وأن هذه المسئولية كاملة ومستقلة ، لا يغنى فيها أحد عن أحد ولا والد عن ولد ، ولا مال ولا جاه ولا حسب . على أنه من الضرورى أن نذكر أن لهذا التطبيق جذوره الضاربة فى تحمل المسئولية منذ أول لحظة فى تبليغ الدعوة الإسلامية إلى قريش ، فالمسألة إذن تتعلق بمبدأ أساس صاحب عقيدة التوحيد ذاتها فى وقت مبكر ، وإليك بيان ذلك بإيجاز :

الاستقلال فى تحمل التبعية مع بداية الدعوة :

إن موقف السنة فى هذا الجانب موقف حاسم وقاطع ، وتتسم النصوص الدينية فى هذا المجال بالصرامة البالغة منذ صدع الرسول ﷺ بالدعوة إلى ربه حتى قامت دولة الإسلام وعلت كلمة الحق .

روى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ جعل النبى ﷺ يدعوهم قبائل قبائل .

وروى الإمام البخارى بسند آخر عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ جعل النبى ﷺ ينادى : يابنى فهر ، يابنى عدى ، ببطون قريش .

وروى البخارى أيضاً عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال : « **يابنى عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله ، يابنى عبد المطلب أشتروا أنفسكم من الله ، يا أم الزبير بن**

العوام عمة رسول الله ، يافاطمة بنت محمد اشتريا أنفسكما من الله ، لا أملك لكما من الله شيئاً ، سلانى من مالى ما شئتما »[١] .

واضح أن هذه الأحاديث الشريفة كانت أسبق بكثير من حديث المخزومية ، فبينما كان أمر المخزومية بالمدينة حيث إقامة الدولة الإسلامية الأولى ، كانت هذه الأحاديث فى بدايات الدعوى بمكة المكرمة . وإنما نذكر هذا الفارق الزمنى لنوضح ما يأتى :

أولاً : أن التمثيل بالسيدة فاطمة الزهراء فى قصة المخزومية لم يكن شيئاً تكنيكيًّا فرضته ظروف قضية المخزومية كما يعبر الساسة فى هذا العصر ، كى يستعين رسول الله ﷺ على إقناع كل من أسامة وعشيرتها بالخضوع لإنفاذ حد الله سبحانه .

كلا ، لم يكن الأمر كذلك وإن كان هذا الأمر فى حد ذاته قصداً نبيلاً ، أعمق من ذلك بكثير ، فالتمثيل حقيقى فى نتائجه ، لو حدثت مقدماته وحاشا لله أن تحدث .

ثانياً : لم تكن السيدة فاطمة الزهراء وحدها فى هذه المسألة الجوهرية التى تتعلق بالمسئولية الشخصية فى الإسلام ، فهذا هو رسول الله ﷺ ينادى بطون قريش وأعمامه وعماته وابنته فى هذه المرحلة المتقدمة من تاريخ الدعوى ليعرفوا من أول الطريق حقيقة هذه المسئولية : « **اشتروا أنفسكم من الله ، واشتريا أنفسكما من الله ، لا أملك لكما من الله شيئاً** » .

ثالثاً : إذا كنا ذكرنا فى حديث المخزومية مواجهة النبى ﷺ للمجتمع بقواعد مغايرة لأعرافهم مغايرة كلية مع الإشارة عندئذ إلى جهد النبى ﷺ الشاق والخارق فى تغيير هذه الأعراف حتى أضحى من الممكن أن يقبلوا منطقه وحكمه ، فالأمر هنا جد مختلف ، إذ لا زلنا بمكة والأعراف هى الأعراف لم تتغير ، والتقاليد

(١) ص ١٤٧ ج ٤ صحيح البخارى طبعة مكتبة النهضة .

الراسخة على الحمية والأنفة لا زالت قوية لم تمسسها يد التغيير ، ومع ذلك لا يتردد الرسول الكريم ﷺ فى أن يعلن لأهله وأقاربه جميعا عدم تبعيتهم فى تحمل المسئولية ، بل ويعلن أنه لا يغنى عنهم من الله شيئا ، ولا يملك لهم شيئا ، ثم يخصص فاطمة وعمته أم الزبير على غير ما جرت به عادة العرب من حماية النساء والظهور أمامهن بمظهر البطولة .

رابعاً : أن تخصيص النبى ﷺ ابنته فاطمة بمثل هذه النداءات بمكة دون غيرها من بناته ؛ لأنها كانت أصغر البنات سنا ، والصغرى هى التى تحتاج للحماية والرعاية أكثر من سواها . كما أنها كانت ـ رضى الله عنها ـ فى كفالة أبويها حيث لم تتزوج بعد ، وتظهر معانى التبعية هنا للأب بصورة أجلى . فإذا كان الرسول ﷺ لا يملك لهذه شيئا فغيرها من باب أولى ، وإذن فذكرها على وجه الخصوص أوقع فى النفس أثراً وأوضح فى الدلالة بياناً .

خامساً : إذا كان الرسول ﷺ حرص على هذه البيانات يسوقها لعشيرته فى المراحل الأولى والمبكرة من مراحل الدعوة تنفيذا لأمر الله سبحانه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ .

فمعنى ذلك أن المسئولية الشخصية شئ هام جدا جدا وتأسيسى فى صلب الدعوة الإسلامية وكيانها ، وإلا كان من الممكن تأجيل بلاغه بعض الوقت . والحق أن التغيير الجوهرى فى المجتمع لا يتم ولا يتحقق إلا على أيدى رجال تميزت ونمت قيم المسئولية فى أشخاصهم ونفوسهم وسلوكهم .

ونخلص من ذكر هذه الأحاديث النبوية الشريفة الأربعة بأنها جميعها تؤكد وتؤيد أن المسئولية المستقلة أو الشخصية ضرورة من ضرورات المفاهيم الأساسية التى لا يكون التكليف إلا بوجودها ، أى يمكن اعتباره ركنا من أركان المنهاج الإسلامى لحماية المسئولية من حيث الاختيار الإنسانى ، ونعمة الحرية على أساس

أن الحرية فى الاختيار من لوازم التكليف الشرعى كما سبق بيانه .

استقلال الشخصية على مستوى الأمة :

إذا كان الأفراد فى مجتمع من المجتمعات يتمتعون بشخصيات سوية مستقلة ، فلا شك أن ذلك سيؤثر فى المجتمع نفس الأثر الطيب ، ومن هنا فقد طلب الإسلام من كل أسرة أن تمنح أفرادها قدراً كبيراً من العناية والتربية على مبادئه الخالدة كى تكون اللبنات التى يتكون منها بناء الأمة قوية صحيحة ، ومن أجل ذلك كان اهتمام الإسلام البالغ بتنمية الشخصية المسلمة وجعلها متميزة مستقلة . وأى خلل فى الفرد سيعود على الأسرة ، وبالتالى يعود على المجتمع المسلم والأمة الإسلامية ؛ ولذا كان لابد من الإشارة إلى خطورة ضعف شخصية الأمة أو ضياعها فى هذه الفقرة الخاصة .

فقد حذر رسول الله ﷺ من خطورة فقدان استقلال الشخصية على مستوى الأمة ، مبينا أن هذه الخطورة قد تصل إلى درجة ذوبان الأمة وتلاشيها فيما عداها من الأمم .

روى الإمام البخارى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « **لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم** » ، قلنا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : « **فمن ؟** » [١] .

ويروى الإمام البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « **لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر وذراعا بذراع** » ، فقيل : يا رسول الله ، كفارس والروم ؟ فقال : « **ومن الناس إلا أولئك ؟** » [٢].

ويتضح أشد التحذير فى قوله ﷺ : « **شبراً بشبر وذراعا بذراع** » ، فى النصين وفى

---

(١) البخارى ج ٩ ص ١٣٣ .

(٢) المصدر نفسه .

قوله ﷺ : « حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم » ، فى النص الأول . حيث تصور هذه الكلمات النبوية أشد حالات الضعف وتلاشى الشخصية المميزة للأمة وتبعيتها الكاملة لأعدائها ، مع الحرص على تقليدهم فى كل خطوة شبراً بشبر حتى لو دخلوا جحر ضب لاقتفوا أثرهم فى صغار وذل ومهانة .

وفى هذه الأحاديث إعجاز بيِّن وقع كما أخبر الرسول الكريم ﷺ ، ولا يخفى أن التبعية والتقليد على هذه الصورة المنافية للعقيدة والدين من أسوأ القيود التى تتعارض مع الحرية ، حيث تملى على الناس سلوكا يتنافى مع دينهم .

وهم فى الواقع لا يصلون إلى هذا المستوى العام البالغ فى الانحدار إلا إذا فقدوا حرية الرأى والاعتقاد والقدرة على الاختيار ، وانهارت مشيئتهم وإرادتهم وعندئذ يصبحون أسارى لسلوك غريب وافد مع أعدائهم . وليس أدل على ذلك من حال الأمة الإسلامية فى الوقت الحاضر .

ومن هنا تبدو عظمة المنهاج الإسلامى حين يسلك فى حماية حرية الرأى والاعتقاد والسلوك فى الأمة طريقاً فطريا يوجب تميز شخصية الأمة واستقلالها عن التأثر بهذه العوامل الخارجية الضارة .

*****

الفصل الثالث
الدعاء والاستعانة بالله

ليس كالدعاء عبادة فى الإسلام يحتاج المسلمون لمعرفة الكثير عنها وعن بعض أسرارها وحكمتها ، وذلك بسبب عدم متابعتهم للنصوص القرآنية والنبوية فى موضوع الدعاء واستظهار ما فيها من أبعاد .

ولا يعدو تصور المسلمين عن هذه العبادة ـ خصوصًا عامة الناس وكثرتهم الكاثرة ـ أن يكون الدعاء عندهم مجرد كلمات تعبر عن الأمانى الدنيوية أو الأخروية يرفعها العباد إلى مولاهم وخالقهم ثم ينتظرون تحقيقها .

ومع أن هذا التصور جزء مهم من هذه العبادة ، إلا أن قصر التفكير فى حدوده فقط يعتبر افتياتاً على عبادة الدعاء ينتقص من جوهرها ويضعف أثرها ، ويلغى الكثير من وظيفتها وحكمتها ، فضلا عن الخلل أو الاضطراب الذى يعترى الاعتقاد ، فالدعاء مخ العبادة ، وإذا أصيب المخ بهذه العوارض اضطربت سائر العبادات ، وأدى ذلك بالتالى لاضطراب صلة العبد بربه من أساسها .

والواقع أن عبادة الدعاء ـ فوق أنها تعبير عن الأمانى يرفعه المخلوقون إلى خالقهم ـ هى عملية متكاملة مركبة لها جوانب كثيرة ، ومن أهمها ، جانبان : جانب نفسى خاص بالإرادة ، وجانب مادى خاص بالسلوك والعمل .

الجانب النفسى :

جانب يبلغ درجة الانفعال الصادق فى أربعة اتجاهات :

١ـ إحساس العبد الذى يدعو ربه بالحاجة والافتقار إلى الله سبحانه ليصل إحساسه إلى درجة الاضطرار المطلق لخالقه وموجده يقول تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ

﴿ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

وقال ﷺ فيما روته السيدة عائشة رضي الله عنها: « **سلوا الله كل شئ حتى الشعس فإن الله إن لم ييسره لم يتيسر** »(١).

٢ـ الثقة بالإجابة فى جانب الله سبحانه، ويبدو ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: « **ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول فيقول: أنا الملك، من ذا يدعونى فأستجب له، من ذا الذى يسألنى فأعطيه، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يضئ الفجر** »(٢).

٣ـ إحسان الظن بالله تعالى وتفويض الأمر الذى تعلقت به النفس وناجت به مولاها المجيب الكريم، فقد يكون ما تمنته النفس ضارا بصاحبها لو تحقق، وأيضا حتى يتم التوازن أمام احتمالات الحياة وتطلعاتها خاصة وأن السنة أخبرتنا بإجابة الدعاء الصادق، أو إجابة ما هو خير منه للداعى، أو ادخاره له عند ربه، أويصرف عنه من السوء مثل دعائه.

قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١].

ويقول ﷺ فيما يرويه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه: « **أنا عند ظن عبدى بى** »(٣).

---

(١) أبو يعلى فى مسنده، ذكره السيوطى فى الجامع الصغير وسكت عنه ونقل المناوى فى فيض القدير أن الهيثمى قال: رجاله رجال الصحيح غير ابن عبد الله بن المنادى هو ثقة ص ١١٠ ج ٤.

(٢) حديث صحيح: أخرجه الأئمة الستة واللفظ للترمذى ص ٥٢٤ ج ٢ تحفة الأحوذى.

(٣) البخارى، كتاب التوحيد.

ويروى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال : « **يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : دعوت فلم يستجب لى** » ، وهذا لفظ البخارى رحمه الله .

٤ ـ خلو الدعاء من تمنى الشر للنفس أو للغير .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل** » ، قيل : يا رسول الله ، وما الاستعجال ؟ قال : « **يقول قد دعوت وقد دعوت فلم يستجب لى فيستحسر عند ويدع الدعاء** » [١] .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « **ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها** » ، قالوا : إذا نكثر ، قال : « **الله أكثر** » [٢] .

فهذه اتجاهات نفسية أربعة رئيسة . كل اتجاه منها على حدة ، عملية نفسية نبيلة تدخل تحتها اتجاهات متعددة ، إذا تحققت كلها فستكون إرادة الإنسان الداعى ومشيئته قد تهيأت تماماً كى ترفع صاحبها نحو سلوك رفيع ومرضى من الله ومن عباده . وهذا السلوك الرفيع المرضى من الله ومن الناس سيكون مهيئاً للانبعاث من أعماق فاعله عن اقتناع ورضا وإيمان وتلك ذروة من ذرى حرية الإرادة فى الإنسان ونمائها وانطلاقها ، ومن ذرى حرية السلوك كذلك ، فضلاً عما يتوقع للعمل من إجادة وإتقان .

الجانب العملى :

الواقع أن الجانب العملى لشعيرة الدعاء والمناجاة يعتبر صدى أو رد فعل

---

(١) مسلم .

(٢) أحمد .

للجانب النفسى بشعبة الرئيسة الأربع وما تحتويه من اتجاهات نفسية إيجابية عديدة ، فإحساس الداعى وشعوره بالحاجة والأضطرار إلى خالقه ، والثقة فى إجابته ، وإحسان الظن به ، وتفويض الأمر إليه ، وتنقية الرغبات المرفوعة من الأذى والمضرة ، وما يتبع ذلك من اتجاهات نفسية فرعية كل ذلك له صداه المباشر على الناحية العملية .

فمثلا الإحساس بالاضطرار إلى الله سبحانه ، يجعلنى أرجوه وأخافه نفسيًّا ، وأحرص على أن أكون مطيعاً له عمليًا .

ومع الاضطرار يكون الإلحاح ، ومع التكرار والإلحاح يكون الارتباط بالأهداف عقلاً وسلوكاً ، وثقتى فى الإجابة تجعلنى نفسيًّا أحب الله سبحانه ، وتربطنى عمليًّا بما أطلبه من الله ، فما دمت واثقاً إجابة طلبى وتحقيقه فلا بد أن أنظم سلوكى على أساس هذا الواقع .

فإذا دعوت بالمغفرة مع يقينى بتحققها خشيت أن أحدث شيئاً جديداً يبدد أثر النقاء والبراءة من الآثام والذنوب التى محيت ، وإذ دعوت بالنجاح هيأت نفسى وهيأت سلوكى لمرحلة أكبر تقدماً فى العلم بإدراك النجاح .

وهكذا يغرس الدعاء فى نفسى أمرين يتصلان بالغرض المراد تحقيقه بالدعاء اتصالا مباشراً ومؤثراً :

الأول : حب العمل .

الثانى : إجادته وإتقانه . هذا بالطبع عدا الأحاسيس الأساسة التى أكسبتنى مزيداً من حب الله سبحانه كنتيجة لهذه الثقة .

أما التفويض لله مع حسن الظن به سبحانه فإنه يترك انطباعه العظيم فى الاندفاع والرغبة والعمل من حيث التوازن بين ما يتحقق من رغبات الحياة وما لا يتحقق .

ولاشك أن مواجهة المواقف نفسيًا وعمليًا برباطة الجأش وهدوء النفس ومتانة الأعصاب يؤدى إلى نجاح الأعمال ، خصوصاً ما كان منها ذا طابع غير عادى كالحروب والمفاجآت السارة أو الضارة على حد سواء ، وفى مقدمة هذه الأعمال ، التصدى لتغيير النفس والمجتمع إلى الوضع الأفضل الذى يرضى عنه الله ويعود بالخير على عباده .

وأما براءة الدعاء من الأذى والمضرة والقطيعة ونحوها فهو فضلاً عن ربط العبد بربه ، فإنه يربط العباد بعضهم ببعض رباطاً حسناً .

بل ويتفرع عن هذا الاتجاه ، اتجاه أرقى وهو إشراك الآخرين فى الرغبات الطيبة التى يربدها الداعى لنفسه ، فكلما عمم الداعى دعاءه للآخرين كان ذلك أدعى إلى القبول ، والبشريات النبوية فى هذا كثيرة .

فدعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجاب ، والملائكة تدعو لمن يدعو لغيره بقولهم : ولك مثل ذلك .

فإذا تعود المسلم بهذا الدعاء على أن يتمنى الخير لغيره كما يتمناه لنفسه واستدام هذا التدريب حصل على أعظم الفوائد التى تقربه من الله ومن الناس ؛ لأنه سيكون من طبيعته النفسية حينئذ أن يسعد بما يسعد الناس به فضلاً عن براءته من أمراض اجتماعية خطيرة كالحقد والحسد والبغض وسوء الطوية ، وستفرض هذه المشاعر الجيدة نفسها على الواقع الخارجى للمرء حيث يجد نفسه مدفوعاً لخدمة الناس والسعى فى مصالحهم ، فضلاً عن العفو والصفح والتسامح معهم ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته .

عن أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » [١] .

---

(١) متفق عليه .

كما يشترط فى هذا الجانب العملى لاستجابة الدعاء أن يكون المطعم والمشرب ، والملبس حلالاً ، وهذا يقتضى الأمانة والاستقامة والعفة عما فى أيدى الناس مما يستدعى الحب والإخاء والعلاقة الطيبة بهم ، ولا تخفى الصلة الوثيقة بين ذلك كله ، وبين العزيمة القوية والإرادة الممتازة .

روى مسلم عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً وان الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾** [المؤمنون:٥١] ، وقال تعالى : **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾** [البقرة:١٧٢] ، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك** »[١] .

من أجل ذلك كان الدعاء حافزاً من أعظم الحوافز فى الإسلام على أن يتحمل المسلم مسئوليته الكاملة عن طريقين يرجعان فى النهاية إلى طريق واحد :

الطريق الأول : طلب العون الإلهى فى كل موقف من مواقف المشيئة الانسانية وسلوكها .

الطريق الثانى : تنمية واستثمار المواهب الإلهية فى الإنسان بأعلى درجة من كفاءتها ، علما بأن هذا الطريق الأخير يشكل فى الحقيقة ـ بكل ما فيه من إرادة حرة ، وسلوك مختار ـ مجرد مخلوق من مخلوقات الله سبحانه ، فهو يؤول حتما إلى الطريق الأول .

ومن هنا يكون طلب العون بالدعاء الصادق أسرع وانجح وسيلة لإجادة عمل هذه المواهب واستثمارها على خير وجه من هذين الطريقين معا .

---

(١) الإمام مسلم .

ولذلك نرى اتجاه السنة المطهرة غاية فى الوضوح فى الجمع بين هذين الطريقين بالدعاء ، حيث تكون ألفاظ المناجاة والأدعية مقترنة أو مصاحبة لعمل إنسانى جاد متسق الخطوات فى طريق الدعاء نفسه .

من ذلك أن رسول الله ﷺ كان يتهجد بالليل مناجيا مولاه بأدعية كثيرة متعددة ، وكان يطلب من أهله وأصحابه ألا يحرموا أنفسهم من هذا الخير .

« **من يوقظ صواحب الحجرات ؟ يارب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة** »[1] .

وغلب النوم مرة سيدنا على بن أبى طالب فحاول أن يعتذر بالمشيئة فلم يقبل ذلك سيدنا رسول الله ﷺ .

فقد أخبر على بن حسين ، أن حسين بن على أخبره أن ابن أبى طالب أخبره : أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبى ﷺ ليلة ، فقال ألا تصليان ؟ « **فقلت يارسول الله : أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا . فانصرف حين قلنا ذلك ، ولم يرجع شيئا ، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه وهو يقول : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾** » متفق عليه .

وفى هذا الحديث عدة فوائد تهمنا فى موضوعنا بشكل مباشر :

أولاً : أن إسقاط الجهد البشرى مع الاحتجاج لذلك بمشيئة الله جدل لا يصلح مسوغا للتباطؤ .

ثانياً : أن العبادات مرتبطة بالعزيمة القوية والإرادة الماضية بحيث ينبغى أن تتغلب على الاحتياجات الجسدية التى يمكن الاستغناء عنها كالنوم عن التهجد فى هذه الواقعة .

ثالثاً : أن المناجاة والدعاء لابد أن تصحبها أعمال إنسانية من جنسها ، فالمناجاة

---

(١) البخارى عن أم سلمة .

حب ، وصدق الحب يقتضى لذة السهر ومجافاة النوم والرقاد .

رابعاً : أن المؤمن يتعهد أهله ويربى أبناءه على هذه الخصال .

خامساً : أن تكون التربية بالإقناع وليست بالإكراه .

فقد بقيت الآية التى قرأها الرسول ﷺ فى أعماق النفوس تؤتى أثرها اقناعًا وتوجيها لكل مؤمن ومؤمنة حتى آخر الزمان .

وفى هذا لفتة قوية للآباء والأمهات ومن لهم حق التوجيه أن يستعملوا مثل هذا الأسلوب الحكيم القائم على الإقناع ، وعدم الإلحاح أو الضغط الذى قد يثير العناد والإصرار أكثر مما يثير الرغبة فى الهدى والاقتداء الحسن .

وفى حديث آخر بين سيدنا رسول الله ﷺ أن الذكر والدعاء القولى مرتبطان أيما ارتباط بالجهد الإنسانى إرادة وسلوكا ، فقد روى البخارى عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن تؤضأ انحلت عقدة ، فإن صلى نحلت عقدة ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان** » (١) .

وقد أورد هذا الحديث الشريف الدكتور محمد عبد الله دراز حين عالج فاعلية الجهد والقدرة على الاختيار الحسن بين أمرين حيث نقاوم بإرادتنا وسلوكنا بعض الصعوبات التى تعترض اختيارنا للأفضل فقال :

ولكى تكون لدينا صورة تقريبية للصعوبات التى تلقاها إرادتنا فى استعداداتنا الموروثة أو المكتسبة ـ يكفى أن نتصور إنساناً غارقاً فى نوم عميق ، وهو يسمع رنين ساعة منبهة ، إننا نخلط بين نظامين مختلفين تماماً حين نقول : إن قانون الطبيعة

---

(١) صحيح البخارى ، باب التهجد .

الذى يضغط على البدن ، ويشل حركته ، يعوق بنفس القدر إرادة الاستيقاظ .

فالحقيقة أنه يكفى أن تمتد اليقظة لبضع لحظات كافية لتحريك الشعور ، وتضمن عدم سعادة النوم فى الحال ، فإن هذه الحالة الطبيعية تترك أمام الإرادة ثلاثة مواقف ممكنة للاختيار على سواء : فلقد يقول المرء لنفسه ، وجسمه لا يزال فى حالة خمود : « يجب أن أواصل راحتى » ، أو « أرجو أن أستيقظ ، ولكنى لا أستطيع أن أعزم » أو « يجب أن أنهض للعمل » .

ومن الواضح أن الموقف الأول المعادى للواجب فى إصرار ، لا يمكن أن يكون مما تفرضه الطبيعة ، إذ إن المرء يستطيع ـ دون أى تغيير فى الوضع المادى ـ أن يتخذ الموقف الأوسط الذى ينطوى على إرادة ضعيفة ، وهذه الإرادة هى المعادل العملى للهروب . وعليه ، فمتى ما بلغ المرء مرحلة اختيار هذا الحل الوسط أصبح من اليسير أن يتحقق من صحة هذا الحكم الذى نصدره مسبقاً عن عجز إرادتنا . وبحسبنا أن نشرع فى محاولة ، مجرد انتفاضة مصطنعة ، حتى نسقط كل وهم عن حقيقة حريتنا . نعم إنه مع قليل من التوتر ، ومع شئ من الحماس ، ينهض أكثر الناس نعاساً ، ويمضى فى عزمه .

وهذه الفكرة التى عالجناها هنا أشار إليها حديث معروف ، يتعلق على وجه التحديد بمقاومة هذا الميل الضعيف إلى الاستيقاظ ، وتتألف الطريقة المأمور بها من مراحل متعددة تهدف إلى تحطيم هذه القيود المادية المفروضة على الإرادة ـ بعضها فى اثر بعض : انطق كلمة تذكرك بالواجب ، قم ، اغسل وجهك وأعضاءك بالماء ... إلخ ، فإذا كان الجسد قد انتعش على هذا النحو بقدر ضئيل من الجهد المؤلم فى البداية ، فإنه سوف يرد إلى النفس بعد ذلك راحتها ومسرتها [1] .

---

(١) انظر البخارى ، التهجد ، باب ١٢ أ . هـ . (ص ١٩٩ ـ ٢٠٠) الأخلاق فى القرآن .

وقد أوردنا نص الحديث الشريف المقصود قبل هذا التعليق .

أدعية مباشرة لصالح المشيئة الإنسانية :

على أن هناك مجموعة من الأدعية المباشرة لاستثمار موهبة المشيئة وتقوية الإرادة وتنمية العزيمة . منها ما رواه الشيخان عن أنس بن مالك ﷺ قال : كان النبى ﷺ يقول : « **اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من عذاب القبر** »[1] .

ونحن إذا نظرنا فى هذا الحديث على ضوء السنة العملية فى الحديث السابق أدركنا أن التعوذ من العجز يجعل المسلم فى حالة نفسية تنفر من العجز ، وبالتالى تجعله فى رغبة وتطلع إلى أن يكون ذا قوة وقدرة ، فإذا تهيأت نفسه بهذا الدعاء كانت الخطوة العملية بعد ذلك ميسرة ، حيث يلتمس السبيل العملى لإبراز تطلعاته إلى عالم الواقع ، فتتسق وتنسجم مواهبه المعنوية والعملية فى تعاضد وتلاحم منطلقة إلى ما يريد صاحبها أن يحققه من أغراض .

وهنا تبدو لنا السنة المطهرة فى تكاملها وتساندها فى عبادة الدعاء وآثارها العملية حين يأتى الأنصارى إلى النبى ﷺ يشكو الحاجة والفاقة ، فيأخذ الرسول ﷺ بيده أخذا إلى مستوى الدعاء الذى يستعيذ فيه المؤمنون بالله سبحانه من العجز والكسل ، فيسأله : « **أما فى بيتك شئ** » ويجيب الأنصارى : بلى ، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب نشرب منه الماء .

ويعقد الرسول ﷺ بين أصحابه مزاداً علنيًا يبيع فيه هذه الممتلكات الزهيدة التى لا تتجاوز ثمنها درهمين اثنين ، ويأمر الأنصارى أن يشترى بواحد من الدرهمين طعاماً لأهله ، وأن يشترى بالآخر قدوما ، ثم يرخص للرجل بل يأمره أن يتفرغ

---

(١) البخارى . باب ما يتعوذ من الجبن .

تماماً للاحتطاب والبيع خمسة عشر يوما لا يرى فيها مجلس رسول الله ﷺ ، ويعود الأنصارى بعد أسبوعين وقد ربح عشرة دراهم . فيقول له النبى عليه صلوات الله : « **هذا خير لك من أن تجئ المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة** »[١] .

وإذا كان هذا التحليل النفسى والمادى يتفق مع واقع عالمنا الحديث كأثر ملموس من عون الله لعباده بالدعاء ، فما بالنا بالآثار العظيمة التى لا تتعلق بها مشاهداتنا من المساندة والمعونه الإلهية التى لاتقع تحت مدركاتنا ولا نستطيع ـ بالتالى ـ إخضاعها للتحليل ؟

ومن هذه الأدعية المباشرة فى المشيئة ، الاستعاذة بالله من الشيطان عند الغضب حتى لا تضطرب المشيئة وقراراتها بسبب الانفعال الحاد ، ويترتب على ذلك من المضرة للنفس أو للغير ما يمكن تجنبه حين تبقى المشيئة فى حالتها الطبيعية الهادئة .

روى البخارى عن سليمان بن صرد قال : كنت جالساً مع النبى ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه ، وانتفخت أوداجه ، فقال النبى ﷺ : « **إنى لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان ، ذهب عنه ما يجد** » ، فقالوا : إن النبى ﷺ قال : تعوذ بالله من الشيطان ، فقال : وهل بى جنون ؟[٢] .

ويتكامل مع هذه الاستعاذة حديث النبى ﷺ فى الجانب العملى حين جاءه رجل تهيأت نفسه وعزيمته كى يلتزم عمليًا بمنهاج محدد يأمر به سيدنا رسول الله ﷺ ، وقد بلغ حرص الرجل على ما يؤمر به أنه طلب التركيز والإيجاز ، حتى يستطيع الاستيعاب والإنجاز ، فكان له ما أراد .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : علمنى

---

(١) رواه أبو داود عن أنس بن مالك .

(٢) متفق عليه .

شيئاً ولا تكثر على لعلى أعيه . قال : « **لا تغضب** » . فردد ذلك مراراً ، كل ذلك يقول « **لا تغضب** » [١] .

وهكذا نلاحظ تكامل السنة المطهرة فى ربط الدعاء بالحياة العملية ، فالنبى ﷺ الذى يعلمنا الاستعاذة من الغضب بالدعاء ، يعلمنا فى نفس الوقت عمليًّا أن نكون فى مستوى ما ندعو لله به فنكف أنفسنا عن الغضب بإصرار وصبر .

ومنه تعليم المسلمين أن يتعوذوا من الشر الذى يرونه فى نومهم ، حتى لا تسيطر على المسلم حالة من الخوف أو التشاؤم مما يؤثر على شخصيته مشيئة وسلوكاً ، خاصة وأن بعض الناس يعطون هذه الأمور من الأهمية قدراً قد يؤثر فى مسيرة حياتهم .

روى الإمام البخارى عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : قال النبى ﷺ : « **الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه ، فليبصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره** » [٢] .

ومنه تبصير المسلم ببعض العوارض الفكرية الطفيلية التى قد تهز علاقة مشيئته بمشيئة الله سبحانه إذا تركها تسترسل .

روى البخارى عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ، فإذا بلغه ، فليستعذ بالله ولينته** » [٣] .

ومنه توقى أثر الشيخوخة على الجهد والفكر والإرادة بالاستعاذة بالله .

---

(١) قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب ، رواه الإمامان أحمد والبخارى ص١٦٤ ـ ج٦ ، تحفة الأحوذى .

(٢) البخارى : باب صفة إبليس .

(٣) متفق عليه .

روى البخارى عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يدعو : « **أعوذ بك من البخل والكسل ، وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات** »[١] .

ومنه التحذير من اليأس الذى يؤدى لكره الحياة ، والتخلى عن المسئولية ، وانهيار العزيمة وضعف الإرادة .

روى أبو داود عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يدعو أحدكم بالموت لضر نزل به ، ولكن ليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى** »[٢] .

وأخرجه الترمذى بلفظ : « **لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنياً فليقل : اللهم ...** » الحديث[٣] .

فهذه أحوال باشرت الأحاديث النبوية الشريفة العناية فيها بمشيئة المسلم وإرادته وعقله وشخصيته عن طريق الدعاء ، والأدعية والأحاديث المماثلة كثيراً جدًّا ولكنا اكتفينا بهذه المجموعة باعتبارها نماذج تغطى عدة جوانب هامة من جوانب الحياة وأحوالها .

فالأحاديث التى ذكرناها عالجت بالدعاء الأحوال الآتية :

١ـ العجز ، والكسل فى كل ما تتجه إليه مشيئة الإنسان من عمل نافع ليواجهه المسلم بالهمة والعزيمة والنشاط ، كأساس عام تحتاجه كل نشاطات الحياة التى يسأل عنها المسلم .

---

(١) البخارى .

(٢) وأخرجه أيضاً الإمام مسلم والنسائى والترمذى .

(٣) المنهل المورود ج ٧ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

٢ـ الجبن ، والبخل فهما يسيطران أحياناً على المرء فيتقاعس عن أداء الواجب المفروض .

٣ـ حالة الشيخوخة وما يتعرض له المرء فيها من ضعف أو مرض أو غيره .

٤ـ أحوال الفتن وتقلباتها فى الدنيا مع الدعاء بالحفظ منها ومن فتنة القبر وعذابه .

٥ـ الدعاء بالحفظ والإعاذة من الدجال ، وهى نظرة تربط المسلم بالتطلع إلى المستقبل بحيث يكون قراره معدا ، ومشيئته ماضية حتى لا يؤخذ على غرة أو غفلة .

٦ـ حالة الغضب وما يؤدى إليه من فقدان السيطرة على القصد والقول والعمل .

٧ـ حالة الاسترسال الفكرى غير المرضى أو غير المنتج ، وما قد يؤدى إليه من بلبلة فى العقل والقلب ، ووجوب التوقف عنه ، والاستعاذة بالله منه .

٨ـ حالة القنوط واليأس التى قد تصل إلى درجة تمنى الموت ومعالجتها بدعاء صحيح ليس فيه قنوط ولا يأس .

اللهم فابعث فى نفوسنا وقلوبنا الرجاء والأمل ، وفى سلوكنا وجهدنا صالح التطبيق والعمل ، وانفعنا وأمتنا بدين الإسلام ، وامنح نبينا محمداً خير صلاة وأزكى سلام .

والحمد لك ياربنا وخالقنا وهادينا بنعمتك وحدك تتم الصالحات ، لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

*****

بعض المراجع التى أفدنا منها

١- القرآن الكريم . وعلومه .

٢- الحديث الشريف . وعلومه .

٣- أحكام القرآن . للجصاص .

٤- أحكام القرآن . لابن العربى .

٥- الأحكام . للآمدى .

٦- إعلام الموقعين . لابن القيم .

٧- السياسة الشرعية . لابن تيمية .

٨- الموافقات . للشاطبى .

٩- الاقتصاد فى الاعتقاد . لأبى حامد الغزالى .

١٠- شفاء العليل . لابن القيم.

١١- المذاهب الإسلامية . لأبى زهرة .

١٢- إمتاع الأسماع . للمقريزى .

١٣- تاريخ ابن خلدون .

١٤- حياة الصحابة . للكاندهلوى .

١٥- سيرة ابن هشام.

١٦- شرح الشفا . للقارى.

١٧- الفكر الإسلامى الحديث . للدكتور محمد البهى .

١٨- إحياء علوم الدين . للغزالى .

١٩- الإنسان والأخلاق والمجتمع . جون كارل .

٢٠- بين الدين والعلم . الدكتور الغمراوى .

٢١- التشريع الجنائى فى الإسلام . عبد القادر عودة .

٢٢- الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى . د .محمد البهى .

٢٣- الحضارة فى الميزان . ارنولد توينبى .

٢٤- خريف الفكر اليونانى . عبد الرحمن بدوى .

٢٥- دستور الأخلاق فى القرآن . د .محمد عبد الله دراز.

٢٦- الفلسفة الخلقية ونشأتها . د .توفيق الطويل .

٢٧- المسئولية والجزاء . د .على عبد الواحد.

٢٨- المنقذ من الضلال . للغزالى .

٢٩- الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة . د .محمد غلاب .

*****